اثر العوامل الاقتصادية في قيام الثورة السورية الكبرى عام ١٩٢٥

الدكتور فاهم نعمة ادريس الياسري
مدرس - كلية التربية - جامعة واسط

تمهيد:

تشكل الثورة السورية الكبرى التي اندلعت عام ١٩٢٥ بقيادة سلطان الاطرش اعنف صراع بين الشعب السوري والاستعمار الفرنسي من اجل الاستقلال [١] ، في أعقاب معركة ميسلون التي حدثت في الرابع والعشرين من تموز ١٩٢٠ [٢] ، والتي قادها يوسف العظمة اذ تصدت القوات العربية بقيادته الى القوات الفرنسية الزاحفة عند ممر ميسلون لآسقاط الحكومة العربية التي شكلها فيصل بن الحسين في دمشق [٣] ، والتي انتهت لصالح القوات الفرنسية الزاحفة نحو دمشق اذ قتل يوسف العظمة وغادر فيصل بن الحسين سوريا في ٨ تموز ١٩٢٠ متجها الى اوربا[٤]، وعين الجنرال غورو (٨ تشرين الاول ١٩١٩-٩ مايس ١٩٢٣) مفوضا ساميا، الذي اتبع السياسة الاستعمارية المعروفة (فرق تسد) في حكم هذا القطر العربي. وقام بعد دخوله سوريا بفصل لبنان عنها بموجب مرسوم اصدره في (٣١ اب ١٩٢٠)، وتكوين حكومة خاصة بادراته ثم عمد الى تقسيمها الى اربع دويلات منفصلة [٥].

انشا الفرنسيون لهذه الدويلات حكومات ومجالس تمثيلية ، ليس لها من الامر شيء ، لأن المستشارين كانوا الحكام الفعليين ، كما تدخل ضباط المصالح الخاصة في شوؤن البلديات والاقضية ، وشددوا الرقابة على الوطنيين، فشجعوا الجاسوسية لتشديد قبضتهم على البلاد (٧)، ومما زاد الامور سوءا ، التغيير المستمر للمفوضين السامين ، فلا يكاد يعين المفوض حتى يستبدل باخر حتى اطلق عليهم الكاتب بوناردي اسم ((الطيور الرحالة)) (٨)، ويتبع هذا التغيير هنا بروز الكثير من النزاعات والخصومات بين الموظفين ، فالمفوض الذي ياتي يجلب انصاره معه ، وعندما يعود الى فرنسا لا يعيدهم كلهم الى فرنسا معه ، فيخوضون ضد خليفته من بعده حربا سرية اساسها التقارير الكاذبة (٩).

كما اقام الفرنسيون دكتاتورية عدلية ، فالقضاة الفرنسيون سيطروا على المحاكم وشكلوا المحاكم المختلطة ، وكون البلاد تحت الاحكام العرفية تدخل القضاء العسكري في كل مشكلة تخدم المصالح الفرنسية .

اما قوات الدرك والشرطة فكانت تتبع الحكومات المحلية شكلا ، والمفوضية العليا فعليا بما يخدم مصالحها (١٠) ، وعمدوا الى اثارة الفتن الطائفية والمذهبية في البلاد لنشر الفرقة وترسيخ اقدامهم فيها (١١) ، وهكذا تدهورت الاوضاع السياسية والادارية و الاجتماعية في ظل الانتداب الفرنسي . غير ان تدهور الحالة الاقتصادية جعل الحالة تزداد سوءا واسهم بشكل كبير في دفع الشعب السوري الى المقاومة للتخلص من السيطرة الفرنسية وتحقيق الاستقلال ،

الاوضاع الاقتصادية واثرها في قيام الثورة السورية الكبرى عام ١٩٢٥:

اتبع الفرنسيون سياسة اقتصادية تقوم على الاستغلال والنهب والافقار ، فقسموا سوريا الى دويلات صغيرة كما اسلفنا ، لتسهيل استغلالها ، وانشأوا بينها حواجز كمركية ، كما كان بينها وبين فلسطين والاردن، والعراق من الجنوب والشرق وتركيا من الشمال ، والتي كانت سابقا اسواقا طبيعية لنصف منتوجات سوريا الزراعية ، وثلثي مصنوعتها، و ذلك حينما كانت تحت السيطرة العثمانية (١٢) ، ومما زاد الاوضاع سوءا، هو رفع الفرنسيين للرسوم الكمركية لتأمين المال اللازم لميزانتيهم، فارتفعت التعرفة الكمركية لفئة (أ) ، وهي الدول الاعضاء في عصبة الامم من ١١% الى ١٥% عام ١٩٢٦ وفئة (ب) ، وهي الدول خارج عصبة الامم الى ٣٠% ومن ثم الى ٥٠% في العام نفسه .

وهكذا وصلت ايرادات الكمارك الى اكثر من ٩٥ مليون فرنك عام ١٩٢٤ ، ووصلت ١٢٨ مليون فرنك عام ١٩٢٥ (١٣) ، ولم تقم السلطة الفرنسية باية خطوة من شانها حماية البضائع السورية من المنافسة الاجنبية، فمثلا عجزت صناعة الجلود السورية عن منافسة صناعة الجلود الفرنسية، بسب الرسوم الكمركية المنخفضة على البضائع الفرنسية (١٤) ، التي تدخل الى سوريا ، فأقفل معمل دمشق و رأس ماله لا يقل عن ٣٠ الف ليرة عثمانية ذهبا (١٥) ، فعم الكساد وانتشرت البطالة ، وحصل خلل كبير في الميزان التجاري (١٦) ، كما موضح في الجدول الاتي (١٧) :

الواردات السورية من الاقطار العربية ودول العالم (١٩٢٥ ـ ١٩٢٧)

الدولة	سنة ١٩٢٥ ل.ل.س ورق	النسبة المئوية	سنة ١٩٢٦ ل.ل.س ورق	النسبة المئوية	سنة ١٩٢٧ ل.ل.س ذهب	النسبة المئوية
فرنسا	٦،٦٤٩،١٢٦	١٣,٦٨	١٢،٦١٣،٤٧٠	١٩,٧٧	١،٩٥٨،١١٤	١٥,٠٢
المانيا	١،٠٤٢،٢٩٨	٢,١٤	١،٣٢٤،٦٤٩	٢,٠٨	٥٤١،٢٢٦	٤,١٥
انكلترا	٧،٩٩١،٦٧٢	١٦,٤٤	٨،٥٨٨،١٩٨	١٣,٤٦	١،٨١٤،٧٤٥	١٣,٩٢
النمسا	٧٥٠،٥٩٠	١,٥٤	٦٩٦،٦٧٦	١,٠٩	٢٠١،٩١٦	١,٥٥
بلجيكا	٢،٦١٥،٩٩٨	٥,٣٨	٣،٣٩٦،٧٧٢	٥,٣	٦٥٩،١٤٦	٥,٠٦
مصر	١،٨٥٧،٤٠٦	٣,٨٢	٢،٥٨٥،١٥٦	٤,٠٥	٥٠٨،٤٣٨	٣,٩
الولايات المتحدة	٧٨٧، ٤،٢١٥	٨,٦٧	٤،٦٠٨،٧٦٥	٧,٢٢	٨٨٨،٨٢١	٦,٨٢
الهند	٢،٩٥٩،٧٥٩	٦,٠٩	١،٩٨٥،٠٠٤	٣,١١	٣٥٤،٦٦٧	٢,٧٢
ايطاليا	٥،٦١٧،٨٣٥	٨,٦٧	٦،٩٤٠،٤٦٩	١٠,٨٨	١،٢٢٩،٥٩٨	٩,٤٣
اليابان	٨٨٢،٨٢٨	١,٨٢	٨٤٩،٦٤٠	٠,١٣	١٧٨،٤١٥	١,٣٧
ايران	٥٠٩،٨٣٩	١,٠٥	٩١٦،٦٢٧	١,٤٤	٢١٩،٨٥٥	١,٦٩
رومانيا	٨٩١،٦٤٠	١,٨	٢،٨٣٩،٤٦٨	٤,٤٥	٥٣٣،٩١٧	٤,١
تشكوسلفاكيا	٩٩٣،٦٦٧	٢,٠٤	٢،٣٣٢،٥٥٩	٣,٦٦	٤٤٤،٩٥٥	٣,٤١
تركيا	٥،٤٦٦،٥٨٦	١١,٢٥	٦،٠٠٨،٩٨٥	٩,٤٢	١،٢٦١،٥٦٢	٩,٦٨
البلاد المجاورة	١،١٥٧،٣٤٢	٢,٤	١،٧٠٧،٧٨٨	٢,٦٨	٦٩٩،٦٣٥	٥,٣٧
باقي البلدان	٥،٠٩٠،٧٥٣	١٠,٤٧	٦،٤١٢،٨٠٨	١٠,٠٥	١،٥٣٨،٠٦٤	١١,٨٠
المجموع	٤٨،٦٠١،١٢٥	%١٠٠	٦٣،٨٠٧،٠٣٤	%١٠٠	١٣،٠٣٣،١٨٥	%١٠٠

يتضح من الجدول اعلاه ان الصادرات الفرنسية قد زادت ما يقارب ال١٠٠% عام ١٩٢٧ ، واصبحت فرنسا في طليعة البلدان التي تصدرالبضائع الى سوريا ، وقفزت من المرتبة الثانية عام ١٩٢٥ حيث بلغت صادراتها الى سوريا ٦،٦٤٩،١٢٦ ل.ل.ورق أي ما نسبته ١٣,٦٨% من مجمل الصادرات العربية والاجنبية ، و الى المرتبة الاولى عام ١٩٢٦ ، حيث بلغت الصادرات الفرنسية الى سوريا ١٢،٦١٣،٤٧٠ ل.ل.س ورق ، أي ما نسبته ١٩,٧٧% من مجمل الصادرات الاجنبية الى سوريا .

ومن جهة اخرى زادت صادرات سوريا الى فرنسا مقارنة بصادرتها الى البلاد العربية والبلدان الاجنبية ، الامر الذي يوضحه الجدول الاتي (١٨):

((جدول يوضح جميع الصادرات السورية الى فرنسا والبلدان الاخرى))

الدولة	سنة ١٩٢٥ ل.ل.س ورق	النسبة المئوية	سنة ١٩٢٦ ل.ل.س ورق	النسبة المئوية	سنة ١٩٢٧ ل.ل.س ذهب	النسبة المئوية
فرنسا	٣،٠٢٢،٤٣٩	١٣,١٨	٣،٩٩٧،٤١٥	١٤,٦٧	٨٨٠،٩٠٧	١٥,٦٥
المانيا	٢٩٣،١٠٠	١,٢٨	٣٦٧،٦١٨	١,٣٥	٧٩،٨٢٢	١,٤٢
انكلترا	٨٧٦،٧٠٢	٣,٨٢	٨٥١،٦٥	٣,١٣	٢٩١،٣٠٨	٥,٠٢
النمسا	٤،١٨٩	٠,٠١٨	١١،٧٦٦	٠,٠٤٣	١٥،١١٤	٠,٢٧
بلجيكا	١٩،١٣١	٠,٠٨٣	٤٨،٠٢٨	٠,١٧٦	٧٣،٩٩٤	٠,١٣
مصر	٣،٣٦١،٨٨٦	١٤,٦٦	٤،١٦٨،٤٦٨	١٥,٣٠	٦٩٣،٢٣٦	٦,١١
الولايات المتحدة	٢،٤٨٥،١٦٨	١٠,٨٤	٣،٤٩٠،٠٨٩	١٢,٨١	٧٥٢،٨٢٠	٦,٦٩
الهند	٤٣٤،٢٨٤	١,٨٩	٤١٩،٠٦٠	١,٥٤	١١٣،٠٢٢	١
اليابان	٢٩،١١١	٠,١٢٧	١٦،٤١٥	٠,٠٦	٣،٥٧٨	٠,٠٣
ايطاليا	١،٠٢٧،٧٥٦	٤,٤٨	١،٣٣٩،٣٣٦	٤,٩٢	٤٢٦،٦٩٨	٣,٨
تركيا	٤،٦٥٥،٦١٧	٢٠,٣٠	٤،٥٥١،٥٠٣	١٦,٧١	٧٣٧،٥٦٧	١٣,٩
ايران	١٤،٨٧٤	٠,٠٦٥	٨٠،٢٩٣	٠,٢٩	٩،٢٨٦	٠,١٦
رومانيا	٤،٢٦٦،٧٦٥	١٨,٦١	٣،٢٤٠،٧٧٧	١١,٩٠	٥٢٨،٠١٩	٩,٣٨
البلاد المجاورة	٢،٠٩٦،٥٥٢	٩,١٤	٣،٩٤١،٢١٨	١٤,٤٧	٧٧٥،٢٣٠	١٣,٧٧
باقي البلدان	٣٤١،٧٢٧	١,٤٩	٧١٧،٠٤٤	٢,٦٣	٢٤٩،٨٣٩	٤,٤٣
المجموع	٢٢،٩٢٩،٣١١	%١٠٠	٢٧،٢٤٠،٦٥٥	%١٠٠	٦،٣٢٠،٨٥١	%١٠٠

يتضح من الجدول اعلاه ان حجم الصادرات السورية الى فرنسا قد تزايد خلال الاعوام ١٩٢٥- ١٩٢٧، فأصبحت فرنسا في المرتبة الثالثة في عام ١٩٢٦ بعد ان كانت في المرتبة الرابعة عام ١٩٢٥. اذ بلغت قيمة الصادرات السورية الى فرنسا عام ١٩٢٦ (٣،٩٩٧،٤١٥) ل.ل.س ورق، أي ما نسبته ١٤,٦٧ من مجمل صادراتها الى الخارج، ومن ثم الى المرتبة الاولى عام ١٩٢٧. حيث بلغت صادرتها الى فرنسا ٨٨٠،٩٠٧ ل.ل.س ذهب أي ما نسبته ١٥,٦% من مجمل الصادرات السورية الى الخارج.

ان جدولي الصادرات السورية الى فرنسا والواردات منها يوضحان الهيمنة الفرنسية الكبيرة على الاقتصاد السوري، والنهب الذي كان يقوم به الفرنسيون لخيرات سوريا في الوقت الذي كان شعبها يعاني من الفقر، وتردي الحالة الاقتصادية الامر الذي عمق الكراهية، واثار تذمرا كبيرا لدى اوساط الشعب السوري.

ويمكننا ان نتعرف من خلال قيمة البضائع المستوردة والمصدرة على حجم العجز في الميزان التجاري السوري للاعوام (١٩٢٥ ـ ١٩٢٧) . مع دول العالم المختلفة ، وكذلك حجم العجز في ميزانها التجاري مع فرنسا . وكما موضح في الجدولين الاتيين :

جدول يمثل العجز في الميزان التجاري السوري للاعوام (١٩٢٥ـ١٩٢٦ـ١٩٢٧) مع جميع دول العالم

السنة	الواردات	الصادرات	العجز في الميزان التجاري
١٩٢٥	٤٨،٦٠١،١٢٥	٢٢،٩٢٩،٣١١	٢٥،٧٧١،٨١٤ ل.ل.س ورق
١٩٢٦	٦٣،٨٠٧،٠٣٤	٢٧،٢٤٠،٦٥٥	٣٦،٥٦٦،٣٧٩ ل.ل.س ورق
١٩٢٧	١٣،٠٣٣،١٧٤	٦،٣٢٠،١٥١	٦،٣١٢،٣٢٣ ل.ل.س ذهب

حجم العجز في الميزان التجاري السوري مع فرنسا للاعوام (١٩٢٥ـ١٩٢٧)

السنة	الواردات	الصادرات	العجز في الميزان التجاري
١٩٢٥	٦،٦٤٩،١٢٦	٣،٠٢٢،٤٣٩	٣،٦٢٦،٦٨٧ ل.ل.س ورق
١٩٢٦	١٢،٦١٣،٤٧٠	٣،٩٩٧،٤١٥	٨،٩١٦،٠٥٥ ل.ل.س ورق
١٩٢٧	١،٩٥٨،١١٤	٠،٨٨٠،٩٠٧	١،٠٧٧،٢٠٧ ل.ل.س ذهب

وفضلا عن ذلك فقد احتكر الفرنسيون واردات الكمارك كاملة ، للانفاق على المفوضية العليا ودوائرها وعلى جيوشهم في سوريا . وكذلك لتسديد خسائر الشركات الفرنسية العاملة هناك ، ولتسديد الدين العثماني البالغ احد عشر مليون ليرة تركية تقريبا (١٩) ، مما حرم الخزينة السورية من هذه الواردات الكبيرة، والتي تشكل نسبة كبيرة من الدخل السوري احيانا قد تصل الى النصف (٢٠).

ومما يوضح ذلك هو ان المفوضية كانت تنفق من ٨ ــ ١١ مليون ليرة سورية من واردات الكمارك على امور تخصها اذ كانت تنفق ما مقداره ٤,٥٠٠,٠٠٠ للامور العسكرية ، و ٣٥٠,٠٠٠ ليرة للامور المدنية، و ٣٥٠,٠٠٠ للامور العامة ، و ٩٠٠,٠٠٠ ليرة لسد العجز في موازنة شركة سكة الحديد ، و ٢١,٥٠٠,٠٠٠ ليرة فقط كانت توزع على الدويلات السورية (٢١).

ومن جهة اخرى عمدت السلطات الفرنسية وفي مختلف مناطق سوريا على فرض ضرائب مجحفة وغرامات كبيرة ، وصادرت بعض الممتلكات العائدة الى السوريين لا لشيء الا لآنهم كانوا من المعارضين لسلطة الانتداب ، او كونهم من المشتبه بهم ، الامر الذي ادى الى فائض كبير في ميزانية الحكومة السورية بلغ عام ١٩٢٧ (١،١٧٧،٦٠٠) ل.ل.س ذهب . وقد استغلت سلطات الانتداب هذا الفائض للانفاق على موضفيها وجنودها ، ولم تخصص نسبة على الاقل منه لاغراض التنمية في حكومتي سوريا ولبنان (٢٢) .

وفي ما ياتي جدولا يوضح ميزانية الحكومات المحلية السورية لعام١٩٢٧ (٢٣):

الحكومة	الايرادات ل.ل.س ذهب	النفقات ل.ل.س ذهب	الباقي من الدخل ل.ل.س ذهب
لبنان	١،٢٠٦،٨٠٠	٨٧،٤٠٠	٣٣١،٩٠٠
سوريا	٢،٢١٠،٠٠٠	١،٥١٦،٠٠٠	٦٩٤،٠٠٠
العلويون	٣٨٥،٠٠٠	٣٠٢،٠٠٠	٨٣،٠٠٠
الاسكندرونة	٢٨٩،٨٠٠	٢٢٤،٦٠٠	٦٥،٢٠٠
جبل الدروز	٦٠،٤٠٠	٥٦،٩٠٠	٣،٥٠٠
المجموع	٤،١٥٢،٠٠٠	٢،٩٧٣،٥٠٠	١،١٧٧،٦٠٠

وعلى صعيد التبادل التجاري الداخلي ، فقد حاول الفرنسيون عزل الحكومات المحلية اقتصاديا بعضها عن البعض الاخر ، ففرضوا رسوما باهضة على بضائع الدروز التي تدخل دمشق اسموها ضريبة حكومة الشام،

اذ بلغت ٣٠ قرشا على كل جمل من جمال الدروز يدخل دمشق شهريا، و٦٠ قرشا باسم خزينة الحكومة ، مما دفع الامير سليم الاطرش الى التهديد بتحويل تجارة القمح الى جهة اخرى اذا لم تلغ السلطات الفرنسية هذه الرسوم الجائرة ، واشار الى ان الدروز عبروا له عن امتعاضهم من هذه الاجراءات (٢٤) .

اما في المجال الزراعي فقد ارهق الفلاح السوري بالضرائب المختلفة ، معتمدين على الاساليب العثمانية المجحفة في جبايتها ، والتي كانت تقوم على اساس خاطئ ، فمثلا ضريبة التمتع (الدخل) كانت تجبى على اساس اجرة الدكان الذي يتعاطى فيه المكلف صنعته ، وربما تجاور تاجر بسيط وصراف كبير في دكانين اجرتها واحدة فيتساويان بالضريبة ، في حين قد يفوق دخل الثاني دخل الاول مرات عديدة ، وظلت ضريبة الاعشار كما كانت عليه ، لكنهم استبدلوا طريقة تحديد العشر ، فعوضا عن تحديد مقدار العشر في كل سنة بتخمين الغلات او بطريقة الالتزام ، اتخذت السلطات الفرنسية قرارا بان يكون مقدار العشر معادلا لمعدل اعشار اربع سنوات سابقة . ولا شك ان هذه الطريقة جائرة ، لان اعشار اربع السنوات سابقة ، حددت باحدى طريقتي التخمين والالتزام ، وكلتاهما اخذ فيهما جانب ارباط الوجاهة على حساب الفلاحين الفقراء (٢٥) . كما ان اثمان الغلات الزراعية تختلف في كل سنة عما قبلها في السنة السابقة وقد زادت الضرائب على معدلها ايام العثمانيين ست مرات ، اذ اصبحت تجبى بنسبة ٥٠% ـ ٦٠ % ، ونصيب الفرد السوري منها ما يعادل ٥٣,٣ فرنكا سنويا (٢٦) .

وبدل ان تنفق هذه الضرائب لاصلاح حالة الفلاح ، دفعت رواتب للجيش والموظفين الفرنسيين . فقد بلغ مقدار ما يتقاضاه الموظفون من الميزانية ٤,٦٠٠,٠٠٠ ليرة سورية، منها ٢,٠٠٠,٠٠٠ليرة للموظفين الفرنسيين ، وعددهم ٤٨٠ موظفا في سوريا ولبنان اذ بلغت نسبتهم ١٠,٧١ % من مجمل الموظفين في سوريا ولبنان حتى عام ١٩٢٥ (٢٧). ولعل من الامثلة التالية توضيحا لاسراف السلطة في الرواتب والاكراميات والمكافأت لموظفيها ، وحرمان الموظفين السوريين بالرغم من كونهم اكثر عددا او كفاءة من الفرنسيين . فمثلا مجموع ما يأخذه (٣٢) موظفا فرنسيا في

الكمارك بلغ ٢،٠٠٠،٠٩٠ فرنك، أي ان كل موظف فرنسي يقبض ٦٣،٣١٢ فرنكا ، سوريا ٢،٠٠٠،٠٧٠ فرنك فرنسيا أي ان كل موظف فرنسي يقبض ٦٣،٣١٢ فرنكا ، في حين ان الموظف السوري يقبض ٣٩٦٣ فرنك سنويا ، ويمكن قياس ذلك على بقية الدوائر ، كالمالية و الصحة والنافعة و التعليم وغيرها ، ومثال اخر على الاكراميات التي يتمتع بها الموظفون الفرنسيون دون السوريون ، فقد منح القرار الصادر ١٩٢٢ القضاة الفرنسيين والمفتشين والموظفين اكراميات مقدارها ٣٠٠٠٠٠ فرنك، وزعت على ١٥ موظفا، كما منح المسيو كوران (corine) مستشار الزراعة في السويداء في اذار ١٩٣٣م ١٠٠٠٠٠ فرنك تعويضا له بسبب انتهاء الاتفاقية المعقودة بينه وبين المفوضية (٢٨)، وقد ادت هذه النفقات الباهضة الى الاستياء بين اوساط الفلاحين السوريون، الذين ارغموا على دفع مبلغ ٤٠مليون فرنك سنويا على شكل ضرائب ورسوم(٢٩).

لقد فرض الفرنسيون غرامات باهضة على المواطنيين السوريون وبالذهب العثماني، كوسيلة عقابية من جهة ، ولنهب ثروات البلاد وانهاكها اقتصاديا من جهة اخرى (٣٠). فقد رفع اهالي الدروز عريضة الى حامك جبل الدروز في ٦ تموز ١٩٢٥ مليئة بحوادث فرض الغرامات على القرى لاتفه الاسباب، كما حدث وفرضت غرامة على السويداء مقدرهل عشر ليرات ذهب عثمانية لفقدان قطة ل((ليوتنان موريل)) قائد الدرك، حتى قدر مقدار الغرامات قي عهد حاكم الدروز كاربيه (١٩٢٣ـ ١٩٢٥) بعشرين الف ليرة ذهب عثماني(٣١).

ومن جهة اخرى فقد فتح الباب على مصراعيه ، لنظام الامتيازات والاحتكارات للشركات الفرنسية لاستثمار اموالهم في ثروات البلاد خلال الفترة الواقعة ما بين ١٩٢٠ ــ ١٩٢٥ ، فأنشأوا بنك سوريا ولبنان، وهو بنك للرهونات واقراض الفلاحين مقابل رهن اراضيهم ، وبنكا للاراضي والبيوت والمجوهرات، والبنك الفرنسي للصرافة ، والبنك العقاري الجزائري، وشركة التنوير والماء في حلب وشركة الكداسترو لمسح الاراضي على حساب الحكومة، وشركة ري سهول حمص، وشركة القطن، وشركة النقليات، وشركة المشاريع العامة، وغيرها من الشركات الفرنسية الاحتكارية (٣٢) .

ولم يكن القطاع الزراعي بأفضل من غيره من القطاعات الاقتصادية، اذ عمد الفرنسيون الى اعتماد سياسة فاشلة ، فلم يدخلوا التكنلوجيا الحديثة في مجال الزراعة ، كالالات الحديثة والاسمدة ، واساليب الري المتطورة ، والبذور المحسنة ، ومكافحة الافات الزراعية ، ولم يهتموا بالتعليم الزراعي ، واهملوا صناعة المنتوجات الزراعية ، او حتى تسهيل تصديرها الى الخارج ، او حمايتها من منافسة المنتوجات الاجنبية (٣٣) .

اما الثورة الحيوانية ، فقد شهدت تدهورا كبيرا، اذ انخفضت اعدادها، ونفقت اعداد كبيرة منها بسبب قلة المراعي ، وتفشي الامراض، دون ان يحرك الفرنسيون ساكنا ، وتصف جريدة البشير هذا الوضع المزري للثروة الحيوانية ، ولا سيما في عام ١٩٢٥ ، فتقول : (ان العطش القاتل يتهدد حوران وسكانه ومواشيه ، رأيت النساء يقتتلن على ثغرة البئر في قرية خبب ، وبعد جهد جهيد ترفع الواحدة من بئر عميقة ما يوازي طاستين من الماء ، اما الماشية فلا نصيب لها من ماء القرية ، بل يسوقها الراعي بعيدا ويموت كثيرا منها عطشا وجوعا في الطريق .... وان لفي حوران ازمة شديدة الوطاة ان لم يهتم اولياء الامر بتخفيفها ، أبادت اهل البلاد عن بكرة ابيهم) . وتنقل الجريدة نفسها عن احد مزارعي خبب قوله : ((كان لي ١٩٣ شاة فلم يبق منها الا ١٥ شاة ، وقد رايت بذاتي بقرات تسير سيرا بطئيا منتفخة البطن ، وعظامها ملتصقة بجلدها ولا يسمع في البيداء ثغاء ولا رغاء ، حتى ان الدجاج لا يبيض لانه لا طعام له)) (٣٤) .

ولم تكن الصناعة باحسن حالا من القطاعات الاخرى فقد تدهورت نتيجة تدهور الوضع الزراعي ، والتجاري في سوريا . فقد تعطلت اكثر من ثلاثة ارباع المصانع الوطنية في حمص وحماه وحلب . اذ ادت السياسة الكمركية والتي اشرنا اليها سابقا الى جعل الصناعة السورية عاجزة عن المنافسة في الخارج ، وفي الداخل ، مما ادى الى الكساد وانتشار البطالة . ففي حمص على سبيل المثال، كان يوجد (٣٠٠٠) معمل اونول للمنسوجات الوطنية في اواخر العهد العثماني تقلصت عام ١٩٢٥ الى ٥٠٠ فقط (٣٥). وفي حلب انخفض عدد الانوال من (١٥٠٠٠) نول يعمل فيها ٦٥ الف عامل في العهد العثماني، الى (٢٠٠٠) نول يعمل فيها (٦٠٠٠) عامل. وكذلك لبقية الصناعات كالصوف، والجلود، والدباغة، والحرير، والصباغة،

والسجاد فقد تعطلت واصبح عمالها بلا عمل، وعجز قسم كبير من هذه الصناعات عن المنافسة، فالحرير الذي كان يشكل عنصرا مهما في الصناعة السورية، تقلصت صناعته بسبب منافسة الحرير الصناعي له (٣٦).

ومما زاد من حدة هذه الازمة فتح ابواب البلاد امام الهجرة الارمنية بسبب الاضطهاد التركي ، فقد تدفق اللاجئون الى شمال سوريا ولبنان من كليكيا ، ابتداء من كانون اول ١٩٢١ ، حيث بلغ تعداد اللاجئين الارمن وابناء الاقليات المسيحية الاخرى حوالي (٩٥٩٥٠) نسمة (٣٧) . وبلغ عدد اللاجئين الذين دخلوا سوريا حتى نهاية عام ١٩٣٢ حوالي ١٢٠ الف، قدر لاكثر من ثلثهم ان يظلوا في البلاد ، مما خلق لسوريا مشكلتين: احدهما سياسية اذ ربما يؤدي هذا التدفق الارمني لارضيها انشاء كيان ارمني، او المطالبة بالحكم الذاتي، مما يشكل عبأ اخر عليها ، وهي تعاني في الاصل من مشكلة الاقليات. والاخرى مشكلة اقتصادية اعاقت عمليات التنمية وزادت من حجم البطالة (٣٨).

اما من الناحية المالية فقد سيطر بنك سوريا ولبنان الفرنسي ، على الاقتصاد السوري ، الذي احتكر حق اصدار الليرة السورية ، بما يتناسب وحاجة السلطة الفرنسية ، وليس بما يتناسب و حاجة السوق ، وربط الليرة السورية بالفرنك الفرنسي ، فتعرضت بسبب ذلك الى كثير من التقلبات ، نظرا لتقلب سعر الفرنك الذي ادى انخفاضه المستمر الى خسارة سورية اكثر من ١٠ ملايين فرنك فرنسي عام (١٩١٩ ـ ١٩٢٦) (٣٩) .

وهذا قاد الى خفض قيمة الصادرات ورفع قيمة الواردات اضافة الى المشكلات الاقتصادية والسياسية التي وفعت فيما بعد .

كما سيطر الفرنسيون على الشوؤن المالية في سوريا ، من خلال مدير المالية في المفوضية الفرنسية في بيروت ، والمستشارين الماليين لدى الحكومات المحلية (٤٠).

لقد كان لسياسة فرنسا الاقتصادية في سوريا ومحاولاتها ربط الاقتصاد السوري بالاقتصاد الفرنسي وتدمير كل الامكانات الاقتصادية في سوريا ، لكي تجعلها سوقا للبضائع الفرنسية . فضلا عن سياستها في افقار

الشعب السوري ، واذلاله ، والوقوف امام اي محاولة للنهوض . و تدمير كل قطاعات الاقتصاد الزراعية والصناعية و التجارية.كل هذه السياسات خلقت الارضية المناسبة لقيام الثورة السورية في عام (١٩٢٥) ، والتي تعد من اهم الثورات في تاريخ سوريا على طريق الاستقلال ، والتخلص من السيطرة الاستعمارية الفرنسية .

الهوامش

(١) للتفاصيل عن الثورة: انظر: عبد الله حنا، من الاتجاهات الفكرية في سوريا ولبنان في النصف الاول من القرن العشرين، بيروت، ١٩٨٧ ، ص١٦ ـ ١٧ ، مذكرات عبد الرحمن الشهبندر، ثورة سوريا الكبرى، اسرارها وعواملها ونتائجها ، عمان، ١٩٥٣، ص ١٠ ـ ١١٣،

Mohamed cherif sahii, deco _ loniserl, histoire, paris, 1965

(٢) د. ذوقان قرقوط ، من معارك الثورة السورية الكبرى ١٩٢٥ ـ ١٩٢٧ مجلة دراسات تارخية ، العدد ٤٩ ـ ٥٠ ، اذار ـ حزيران ، ص ١٩، ساطع الحصري، يوم ميسلون ، بيروت ، ١٩٦٥ .

(٣) دخل فيصل بن الحسين سوريا في ٣٠ ايلول ١٩١٨ ، وفي تشرين الاول ١٩١٨ اعلن عن تشكيل حكومة عربية برئاسة علي رضا الركابي وعين اللواء شكري الايوبي حاكما عسكريا على بيروت وطلب منه رفع العلم العربي عليها. مما ادى الى انزعاج الحكومة الفرنسية التي طلبت من الجنرال اللينبي ان يطلب من الامير فيصل بن الحسين سحب ممثله من بيروت ، وتحديد سلطة الحكومة العربية برئاسة فيصل على المنطقة الشرقية من سوريا ، واعطاء المنطقة الجنوبية لبريطانيا، والمنطقة الغربية لفرنسا . انظر : خيرية قاسمية ، الحكومة العربية في دمشق ١٩١٨ ـ ١٩٢٠ ، القاهرة ١٩٧١ ، ص ٤٨ ـ ٥٠ ، زين نور الدين، الصراع الدولي في الشرق الاوسط وولادة دولتي سوريا ولبنان ، بيروت، ١٩٧٧، ص ٨٦ ـ ٨٧ .

(٤) للتفاصيل انظر : جورج انطونيوس ، يقظة العرب ، ترجمة د. ناصر الدين الاسد ، د. احسان عباس ، بيروت ، ١٩٦٦، ص ٤٢٢ ـ ٤٢٥. ساطع الحصري، المصدر السابق ص ٢٠٠ ـ ٢٠٢ ، نجيب الارمنازي ، سوريا من الاحتلال حتى الجلاء ، بيروت، ١٩٧٣ ص ٧.

(٥) جورج انطونيوس ، المصدر السابق ، ص ٤٩٣ ، حسن الحكيم ، سوريا والعهد الفيصلي ، بيروت ، ١٩٦٦ ، ص ٥٠.

(٦) وهذه الدويلات هي دولة حلب التي قامت في ايلول ١٩٢٠ وعاصمتها مدينة حلب والحق بها لواء الاسكندرونة . وفي ٣ كانون الاول من السنة ذاتها تأسست دولة دمشق ، وفي ٢ نيسان ١٩٢١ اعلنت دولة جبل الدروز وعاصمتها السويداء وتشمل المنطقة الجبلية بين دمشق وحدود شرق الاردن ، وفي الاول من تموز ١٩٢٢ تشكلت دولة العلويين وعاصمتها اللاذقية . وتشمل المنطقة الساحلية بين حدود لبنان ولواء الاسكندرونة ، انظر : د. محي الدين السفرجلاني ، تاريخ الثورة السورية ، دمشق، ١٩٦١ ص ٥٨ ، ذوقان قرقوط ، تطور الحركة الوطنية في سوريا ١٩٢٠ ـ ١٩٣٩ ، بيروت ، ١٩٥٧ ، ص ٤٠ ، وجيه كوتراني ، بلاد الشام، السكان، الاقتصاد و السياسة الفرنسية في مطلع القرن العشرين، بيروت ١٩٨٠، ص ٣٠ ـ ٤١.

(٧) فدوى ابراهيم سلطان عبيدات ، الاردن وقضايا المشرق العربي القومية في سوريا وفلسطين ١٩٢١ ـ ١٩٣٩ ، رسالة ماجستير ، جامعة اليرموك (كلية الاداب) ، الاردن ، ١٩٩٣ ، ص ٧٢ ـ ٧٣ .

(٨) De saint _ poin : laverite sur la syrie parua temoin , paris pressesd , art edip 1929 , p 86 ; mme b.g.gaulis laquestion arab , paris , beyroute, 1930 , p 177

(٩) فدوى ابراهيم سلطان عبيدات ، المصدر السابق ، ص ٧٣ .

(١٠) المصدر نفسه ، ص ٧٢ .

(١١) فلاديمير لوتسكي، الحرب الوطنية التحررية في سوريا ١٩٢٥ ـ ١٩٢٧. ترجمة محمد دياب، بيروت، ١٩٨٧، ص ١٢٤.

(١٢) Harvey , with the foreign legion in syria . london , p.157 .

(١٣) Haut _ commissariat la syria et liban sous loccupation et le mandet francais , paris , 1919 _ 1927 , p.205

(١٤) فدوى ابراهيم سلطان عبيدات ، المصدر السابق ، ص ٧٤ .

(١٥) ـ انظر جدول اسعار الليرة العثمانية ذهب بالليرة السورية الورقية لسنة ١٩٢٥ في: الياس وجورج جدعون، الدليل اللبناني السوري لعام ١٩٢٨ ـ ١٩٢٩، بيروت، ١٩٢٩ ، ص ١٠٧.

(١٦)Hant _ commissariant la syria lobnaen .1.22, paris , p.264

(١٧) الياس وجورج جدعون ، المصدر السابق ، ص ٦٠.

(١٨) المصدر نفسه ، ص ٦٠ ـ ٦١

(١٩) عبد الله يوركي حلاق ، الثورات السورية في ربع قرن ١٩١٨ ـ ١٩٤٥، دمشق ١٩٩٠ ، ص ٥٤ .

(٢٠) فدوى ابراهيم سلطان عبيدات ، المصدر السابق ، ص ٨٠.

(٢١) المصدر نفسه، ص ٨١.

(٢٢) الياس وجورج جدعون ، المصدر السابق ، ص ٧٢.

(٢٣) المصدر نفسه، ص ٧٢.

(٢٤) جريدة البشير، العدد ٢٦٨١، ١٩ شباط ١٩٢١.

(٢٥) نجلاء عز الدين ، العالم العربي ، ترجمة محمد عوض ابراهيم ، القاهرة ، د.ت ، ص ٢٠٦ .

(٢٦) محمد عزه دروزة، حول الحركة العربية الحديثة ، ج٢ ، بيروت ، د.ت ، ص١٥.

(٢٧) فدوى ابراهيم سلطان العبيدات ، المصدر السابق ، ص ٨٤ .

(٢٨) مجلة المسرة ، العدد ١١ ، ١٩٢٥ ، ص ٤٦٢ .

(٢٩)Ross and fry , the near East and American philanthrop , newyork , columbia university , 1 , 2 , , p.157.

(٣٠) منير الريس ، الكتاب الذهبي للثورات الوطنية في المشرق العربي ، الثورية السورية الكبرى ، بيروت ، ١٩٦٩ ، ص ٤٤ ـ ١٤٥ .

(٣١) امين سعيد ، الثورة العربية الكبرى ، ج٣ ، القاهرة ، د.ت، ص ٢٩٩ .

(٣٢) عبد الرحمن الكيالي ، الجهاد السياسي ، حلب ، ١٩٤٦ ، ص ٧٤ .

(٣٣) ظافر القاسمي ، وثائق جديدة عن الثورة السورية الكبرى ، بيروت ، ١٩٦٥، ص ٢٢٤ .

(٣٤) جريدة البشير ، العدد ٣٣٠٥ ، ٢٤ اذار ١٩٢٥ .

(٣٥) فدوى ابراهيم سلطان العبيدات ، المصدر السابق ، ص ٨٥ .

(٣٦) المصدر نفسه ، ص ٣٦ .

(٣٧) ستيفن همسلي لونكريك ، سوريا ولبنان تحت الانتداب الفرنسي ، ترجمة بيار عقل ، بيروت ، ١٩٧٨ ، ص ١٧٦ ـ ١٧٧ .

(٣٨) ظافر القاسمي ، وثائق جديدة عن الثورة السورية الكبرى ، بيروت ، ١٩٦٥، ص ٢٢٤ .

(٣٩) عبد الله حنا ، الحركات العمالية في سوريا ولبنان ١٩٠٠ ــ ١٩٤٥ ، دمشق ، ١٩٧٣ ، ص ١٠٦ .

(٤٠) المصدر نفسه ، ص ١٣٢.